قضايا نقدية بين ابن سلام (ت٢٣١هـ)) وابن قتيبة(ت ٢٧٦هـ)و الجاحظ(ت٢٥٥هـ)

جسد ابن سلام (ت٢٣١هـ) المدرسة العربية الرصينة للرواية والعلم بالشعر، وكان لكتابه طبقات الشعراء تأثير كبير في منهجة رواية الشعر العربي التي تحولت على يديه الى علم له اسس واركان ، يشاركه في هذا الفضل الرعيل الاول والثاني من الرواة الثقات من امثال المفضل الضبي وابي عمرو بن العلاء والاصمعي وغيرهم.

يمثل الجاحظ (ت٢٥٥هـ) واجهة للنشاط الفكري المتحضر بسبب البيئة الثقافية التي نشأ فيها وظروف العصر وتأثير الفلسفة في ثقافته باعتباره احد رموز الفكر المعتزلي الذي ارسى اسس التفكير لعقلي والمنطق في الحضارة العربية، وانعكست هذه الخبرات على مذهب الجاحظ النقدي فقد امتازت افكاره بالنظرة الشمولية للشعر والنثر، وناقش الترجمات لآراء اليونان وفكرهم ، وحاور المتلقي بوصفه شريكا في الرأي وطرفا معنيا بالمعرفة ، ولسعة ثقافته وتنوعها طرق موضوعات متنوعة اثرت الدرس النقدي العربي، كما اكسبته تلك المعرفة قدرة على الحكم المحايد المنصف، وتناثرت تلك الافكار والآراء في كتبه ورسائله البيان والتبيين والحيوان والرسائل الكثيرة التي تركها وفاقت ال ١٠٠ رسالة، في حين مثل ابن قتيبة الدينوري(ت٢٧٦هـ) احد اشهر النقاد في عصره واكثرهم اعتدالا في احكامه النقدية، وان كان الجاحظ قد سبقه وقدم له خلاصة آرائه ونظراته التي استفاد نها في كتابه الشعر والشعراء الذي عد سبب شهرته لما فيه من جهد منهجي واضح افتقدته كتب الجاحظ، وهو كتاب مثل موقف البيئة الحضارية من الشعر العربي في مختلف عصوره، وهذه الشمولية التي افتقدها كتاب ابن سلام (ت٢٣١هـ) طبقات الشعراء وكذلك افتقدتها الآراء والنظرات النقدية السابقة له، وكان كتاب الشعر والشعراء خطوة شجعت الكتاب والعلماء على التأليف متحررين من جمود فكرة الرواية والتدوين التي كانت مرحلة ممهدة لنهضة ادبية في ميدان النقد، من هنا جاءت هذه الورقة لتتبع القضايا النقدية بين اثنين من كبار اعلام القرن الثالث الهجري.

واما القضايا المشتركة بينهم فهي قضايا عامة شغلت النقاد وعلماؤه الشعر في عصرهما والعصر السابق ومنها :

- الانتحال: وهذه القضية لا تخص الشعر العربي وحده بل هي شائعة في آداب الامم القديمة بسبب عدم تدوين مأثورهم الادبي، ودارت هذه القضية مرتبطة بالرواية وجهود علماء الشعر بجمع المأثور الشعري العربي الذي ارتبط بجهود الحفاظ على اللسان العربي لخدمة القرآن الكريم بعد اتساع رقعة الدولة واختلاط الاجناس والالسن فيها، وكان من البديهي ان يكون الشعر الوعاء الذي حفظ لغة العرب وهو علمهم وارفع ما انتجته عقولهم، وهو ديوانهم وديوان ايامهم وسفر انسابهم ، ويرى ابن سلام ان ظاهر الانتحال ليست بالجديدة بدليل ما ذكره الشعراء انفسهم كالاعشى وحسان بن ثابت وغيرهم، الا ان ما وجدته العرب بعد استباب امورها واستقرارها ومراجعة مجدها الادبي من قلة ما وصل اليها فاستقلت بعض العشائر شعرها ولجأت الى النحل واكثر من قام بذلك قريش ويرى ان العامل السياسي هو السبب في نحل الشعر ، الى جانب العامل الديني الذي دفع القصاص الى تفسير اخبار الامم البائدة المذكورة في القرآن

بالشعر الذي وضعوه لاستمالة الناس واقناعهم، ومنهم ابن اسحق، ومما رواه في تفسير ايات من سورة الجن واستراقهم السمع في السماء، ما قالته الجن تفتخر بقتل سعد بن عبادة:

قد قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة
ورميناه بسهمين فلم تخطيء فؤاده

واشعارا اخرى في رثاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند مقتله، كما جعل رواة السوء من امثال خلف الاحمر وحماد الراوية احد اسباب هذه الظاهرةبالقول: ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الاشعار، وليس يشك على اهل العلم زيادة ذلك ولا ما وضع المولدون، وانما عضل بهم ان يقول الرجل من اهل البادية من ولد الشعراء او الرجل ليس من ولدهم فيشكل ذلك بعض الاشكال، وما حصل مع ابي عبيدة حين قابل ابن داود بن متمم بن نويرة حين سمع بمقدمه الى البصرة وجلس اليه يستمع منه اشعار جده متمم فلما انتى منها جعل يزيد فيها ويضعها فاذا هي دون اشعار متمم ووقائعها فعرف انه ينحلها، ويعجب ابن سلام ممن يأخذ الاشعار عن حماد وهو الذي يكذب ويلحن ويكسر كما نقل عن يونس.

واكمل الجاحظ ما بدأه ابن سلام في هذا الموضوع واعتمد على آراء الرواة ، يقول مثلا في قول الشاعر:

فانقض كالكوكب الدري يتبعه نقع يثور تخاله طنبا

انه لا يروي ها البيت لاوس الا من لم يميز بين اوس بن حجر وبين شريح بن اوس، كما عالج بعض الاشعار من خلال الوقائع التي حملتها ، فيقول في البيت المنسوب للافوه:

كشهاب القذف يرميكم به فارس في كفه للحرب نار

ان هذا الشاعر الجاهلي ليست له معرفة بالشهب التي يراها ولا يعرفها،وتتناثر في كتبه نماذج كثيرة من الاشعار التي ينقد روايتها ونسبتها الى غير اصحابها.

ويعترف ابن قتيبة في مقدمة كتابه الشعر والشعراء بانه اختار للشعراء المعروفين ممن وصل شعرهم وروته الرواة وان هناك غيرهم كثير لم تصل اخبارهم ولا اشعارهم فلم يذكر من الشعراء من لا يدل عليه خبر او زمان او نسب او نادرة مما روته العلماء، وهذا الكلام يعني ضمنا انه ذكر الشعر الذي رضيته الرواة واتفقت عليه وترك ما سواه.

- القديم والمحدث: لم تكن هذه القضية من بنات افكار الجاحظ وابن قتيبة ، فقد سبق الجدل فيها منذ مطلع القرن الاول الهجري، فقد اعتمد الجاحظ على النظر الى جوهر الشعر الفاظا ومعان، فعده نسجا وجنسا من التصوير ليقدم بذلك نظرة فنية دقيقة تتجاوز المعاير الزمني، ولم يتناول قضية القديم والمحدث بإطارها المعروف، واعتمد العامل الزمني فقط في محاولة تحديد عمر الشعر الذي بين ايدينا ، يقول:" اما الشعر فحديث الميلاد صغير السن اول من نهج سبيله وسهل الطريق اليه امرؤ القيس ومهلهل بن ربيعة.. فاذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام" الحيوان: ١/ ٧٤،كما ناقش اثر البيئة في بناء الشعر وذكر البوادي والحواضر بلا محددات زمنية، لان الشعر عنده ابن بيئته، لكنه بعد ذلك يعود الى الاشارة الى الجدل القائم حول القديم والمحدث وله رأي

خاص به، يقول: " والقضية التي لا أحتشم منها، ولا أهاب الخصومة فيها: أنّ عامّة العرب والأعراب والبدو والحضر من سائر العرب، أشعر من عامّة شعراء الأمصار والقرى، من المولدة والنابتة. وليس ذلك بواجب لهم في كلّ ما قالوه، وقد رأيت ناسا منه يبهرجون أشعار المولّدين، ويستسقطون من رواها ولم أر ذلك قطّ إلّا في رواية للشعر غير بصير بجوهر ما يروى. ولو كان له بصر لعرف موضع الجيّد ممّن كان، وفي أيّ زمان كان" الحيوان:٦٧/٣ لكنه يتبعد العامل الزمني فيقول ان ابيات ابي نؤاس في الطرد مثلا اشعر من شعر مهلهل في اطراق الناس في مجلس كليب، ويقرر ان الفرق بين المولد والاعرابي ان الاول يقول الشعر بنشاطه وجمع الابيات اللاحقات بالبدو، واذا امعن في اشعار البدو اضطرب وانحلت قوته، لأنه عندئذ يعقد المقارنة بين شعره واشعارهم، فهو كما يقول احد النقاد ارسى معيار الجودة في الحكم على الاشعار، ونظر الى الشعر من الخارج وبحث في جهد الشاعر وما بذله في بناء القصيدة: مقالات في تاريخ النقد العربي:١٢٩، اما ابن قتيبة فقد رفض ايضا معيار الزمن ومعيار الطبقة التي اتى بها ابن سلام ،معتمدا على نقطتين:

- لا يوجد قديم مطلق ولا حديث مطلق وكل قديم كان محدثا في زمانه وكل حديث سيصبح قديما في زمن لاحق.
- ان القدرة الفنية وتحقيق معيار الجودة ليست حكرا على القدماء وحدهم فالله تعالى ل يجعل العلم والبلاغة في زمن دون سواه.

ويخلص الى تأكيد موقفه الذي سيبني عليه كتابه بالقول:" (فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له، وأثنينا به عليه، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله، ولا حداثة سنه، كما أن الرديء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه" الشعر والشعراء:١٠، لكنه يعود في موضع آخر من كتابه الى تجاوز هذه النظرة المثالية التي تبناها، يقول في موضوع بنية القصيدة:" فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب وعدل بين هذه الأقسام .... وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام فيقف على منزل عامر أو يبكي عند مشيد البنيان لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العافي، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير، أو يرد على المياه العذاب الجواري لأن المتقدمين وردوا الأواجن والطوامي، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد لأن المتقدمين جروا على منابت الشيح والحنوة والعرارة" الشعر والشعراء:٢٠

اما ابن سلام فقصر كتابه واراءه على القدماء وانتخب منهم ثمانين شاعر جاهلي واسلامي قسمهم الى عشر طبقات في كل عصر تنتهي في الطبقة العاشرة ن الاسلاميين التي تضم مزاحم العقيلي ويزيد بن الطثرية وابو دؤاد الرواسي والقحيف العقيلي وهم امويون تراوحت سنوات وفياتهم بين ١٢٠- ١٣٠ هـ اي قبل العصر العباسي بقليل.

- اللفظ والمعنى: مثلت قضية اللفظ والمعنى احدى القضايا التي تفرع عنها وجود معايير لكل منهما ، ففي المعنى ظهرت معايير الصح والخطأ والصدق والكذب وغيرها، وهي معايير ظهرت وفقا للعصر والبيئة التي نشأت فيها الافكار النقدية، وارتبطت بقضايا

المبالغة وموقف العلماء منها بين مستحسن ومستقبح، الى جانب معايير الوضوح والغموض وغيرها.
واما في ميدان اللفظ فقد جاءت في الادبيات النقدية واليلاغة جملة من المعايير التي تحدد سلامة اللفظ ووضوحه وبعده عن الغرابة والاستكراه والثقل عند النطق، فقد كانوا يؤثرون صحة الالفاظ وجودة السبك ورونق اللفظ وكثرة الماء ، وتداخلت هذه المسائل مع قضايا الموازنة بين الشعراء لاسيما ابس تمام والمتنبي والبحتري ، وهي واجهة لقضية القديم والمحدث التي ظلت تدور بين النقاد والمؤلفين الى عصور متاخرة، فقد ناقش الجاحظ هذه القضية في مباحث انتشرت في كتبه ومنها كتاب الحيوان والبيان والتبيين، اقر في آرائه بان اللغة مثل الانسان تتغير وتتطور وتنمو، فتولد معان جديدة تحتاج للتعبير عنها الى الفاظ جديدة، ويبني على الوقائع والامثلة نهجا لغويا استخدمه في النقد " و إذا كان للنابغة أن يبتدئ الأسماء على الاشتقاق من أصل اللغة، كقوله: (النّؤي كالحوض بالمظلومة الجلد)و حتى اجتمعت العرب على تصويبه، و على اتباع أثره، و على أنها لغة عربية-فالله الذي له أصل اللغة أحقّ بذلك"، وقد وضع اشتراطات لبلاغة اللفظ والمعنى فيقول عن الالفاظ: " كما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا، و ساقطا سوقيا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا، إلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا، فإن الوحشيّ من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقيّ رطانة السوقي. و كلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات. فمن الكلام الجزل و السخيف، و المليح و الحسن، و القبيح و السمج، و الخفيف و الثقيل، و كله عربي، و بكلّ قد تكلموا، و بكلّ قد تمادحوا و تعايبوا. فإن زعم زاعم أنه لم يكن في كلامهم تفاضل، و لا بينهم في ذلك تفاوت، فلم ذكروا العييّ و البكيء، و الحصر و المفحم، و الخطل و المسهب،.." البيان والتبيين١٣٥:١، كما وضع للمعنى قاعدة في علاقته باللفظ:" من علم حق المعنى ان يكون الاسم له طبقاً وتلك الحالة وفقاً ويكون الاسم له لا فاضلاً ولا مفضولاً ولا مقصراً ولا مشتركاً ولا مضمناً ويكون في ذلك ذاكراً لما عقد عليه أول كلامه ويكون تصفحه لمصادره في وزن تصفحه لموارده" وهو ما يعني انه يطلب مراعاة اختيار الالفاظ المناسبة للمعاني بلا زيادة ولا نقصان، فلكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ولكل نوع من المعاني نوع من الاسماء، فالسخيف للسخيف والخفيف للخفيف وغيره.

وابرز ما يجسد راي الجاحظ في هذه القضية مقولته المشهورة:" المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني ،وانما الشأن في اقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك.." الحيوان ١٣١/٣، العبارة التي اخطأ البعض في تفسيرها وبنوا عليها حكما يقضي بانحياز الجاحظ الى الالفاظ ، ومنهم عبد القاهر الجرجاني : " اعلم انه لما كان الغلط الذي دخل على الناس في حديث اللفظ كالداء الذي يسري في العروق، ويفسد مزاج البدن....يقولون الفظ ويعنون الصورة التي تحدث في المعنى والخاصة التي حدثت فيه ويعنون الذي عناه الجاحظ" الدلائل: ١١. وهو ما فهمه شوقي ضيف ايضا حين رأى ان الجاحظ ادخل التصوير في الصياغة واللفظ وانه اراد الاسلوب بمعنى اوسع من رصف الالفاظ، البلاغة تطور وتاريخ: ٥٢، ومغزى كلام الجاحظ لا يشي بما رآه هؤلاء ذلك ان اقتطاع الكلام او

الاكتفاء بمطالعه يفضي الى خلل في الحكم النقدي، يقول د. احسان عباس:" وإذن فربما هداه ذكاؤه إلى استبانة الفروق وضروب التشابه، ولكان لنا في هذا الباب حديث عن المحاكاة وتمايزها بين الفنون؟ الخ؛ ولكن كل ما أراده الجاحظ من هذا القول تأكيد نظريته في الشكل، وان المعول في الشعر إنما يقع على " إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك "، وبهذا التحيز للشكل قلل الجاحظ من قيمة المحتوى" تاريخ النقد الادبي عند العرب ٩٨/١،فهو قد اضاف عناصر الوزن والسبك (النظم) والطبع اسسا للجودة ولم يهمل شأن المعنى لكنه ايضا كان قد سبق الى تأكيد ان المعاني ليست حكرا على احد وانها مثل الالفاظ نتاج البيئة التي ولدت فيها، وهي نظرة متوازنة .

واما ابن قتيبة فقد ناقش قضية اللفظ والمعنى في سياق الاشعار التي رأى انها اربعة اضرب:

- ضرب حسن لفظه وجاد معناه
- وضرب حسن لفظه وقصر معناه
- ضرب جاد معناه وقصرت الفاظه
- ضرب تأخر معناه وتأخر لفظه

وقد خالف الجاحظ في نظرته الداخلية لمفاهيم اللفظ والمعنى ، وخرج برؤية شاملة طبقها على الاشعار، وان لم يطبقها في منهج كتابه، كما افترق مع الجاحظ في اعتماد على المنهج الاخلاقي الذي اهمله الجاحظ وركز على النسيج والصورة بغض النظر عن الغاية الفكرية للشعر، وعلى ذلك جعل ابن قتيبة مفهوم اجادة المعنى مرتبطا بالقيم التي يعكسها المعنى، وكان من تبعات هذا المنهج عنه ان رفض ابياتا مشهورة عند العرب منها قول الشاعر(ولما قضينا من منى كل حاجة ...ومسح بالاركان من هو ماسح... الابيات)فهذه الالفاظ كما يقول احسن شيء مطالع ومخارج فاذا فتشت المعنى يذكر الاركان المعروفة للحج، ويرى ان هذا الصنف كثير، متجاوزا الحالة الشعورية التي اراد الشاعر رسمها في مشهد الوداع وطبق هذه الرؤية الحادة على طائفة من الاشعار .

وهكذا نخلص الى ان ابن سلام والجاحظ وابن قتيبة قد شكل كل منهما حلقة من حلقات تطور الرؤية النقدية العربية ، وكان لكل منهما رؤيته الخاصة مع اعتماد ابن قتيبة على خلاصة ما توصل اليه الجاحظ في وضع منهجية اطرّت افكاره التي اودعها واحدا من اهم كتب المكتبة النقدية العربية، وكان لعنصر الامانة والحياد التي اتسم بها كل منهما اثرها الكبير في شهرة كتبهما.

المصادر:

- الحيوان- الجاحظ
- الشعر والشعراء ابن قتيبة
- البيان والتبيين – الجاحظ
- طبقات فحول الشعراء – ابن سلام
- قضايا النقد القديم- محمد صايل حمدان

- دلائل الاعجاز- عبد القاهر الجرجاني
- مقالات في تاريخ النقد الادبي- د. داود سلوم
- البلاغة تطور وتاريخ- د. شوقي ضيف
- تاريخ النقد الادبي عند العرب – د. احسان عباس